المندائيـة والتبشـير

معنـى التبشـير

التبشـير: هـو ابـلاغ الخـبر الطيـب الـذي هـو البشـارة، والتبشـير كلمـة عربيـة (محدثـة)، المعجـم الوسـيط، ص ٥٨، تعنـي الدعـوة الـى الديـن تقـول:

بُشِّر فلاناً: اي اخبر بخبر مفرح، ويقال: (بشَّره به)، وبشر صاحب الدّين الناس: وعدهم بثواب الله، نفس المصدر.

يعـد التبشـير واحـداً مـن اهـم المواضيـع التـي واجهـت العقـائد والأديـان التـي ظهـرت علـى مـر العصـور والـى وقتنـا الحـاضر، لتحديـد موقفهـا منـه.

وتكمـن الأهميـة فـي ان التبشـير يلعـب دوراً هامـاً فـي تحديـد هويـة ومـيزات مجموعـة أو مجتمـع مـا مـن النواحـي الأنسـانية المختلفـة: كالفكريـة والأجتماعيـة والسياسـية...الـخ.

والظـاهر ان موضـوع التبشـير قديـم حديـث يحمـل بيـن طياتـه صراعـاً أزليـاً. وقـد وضعـت لـه معالجـات مختلفـة خضعـت لبعـض الضوابـط والقوانيـن.

ولا يهمنـا فـي وقفتنـا القصـيرة هـذه الخـوض فـي ماهيـة التبشـير وتـاريخ ظهـوره عنـد الأقـوام المختلفـة بقـدر مـا يهمنـا معرفتـه فـي ديـن الصابئـة المندائييـن، وهـو موضـوع ملـح خاصـة ضمـن ظـروف الصابئـة فـي الوقـت الحـاضر ويسـتحق منـا الوقفـة والتحليـل.

يعـد الديـن الصـابئي المندائـي ديناً غـير تبشـيري فـي الوقـت الحـاضر، فهـو لايقبـل احـداً مـن ديانـات أو عقـائد اخـرى للدخـول فيـه كمـا انـه لايقبـل رجـوع الخـارجين عنـه - (الا فـي حـدود ضيقـة وضمـن بعـض الشـروط).

تـرى هـل ان هـذا الديـن هـو غـير تبشـيري حقـاً ؟

واذا كان تبشيرياً فلماذا اغلق باب التبشير فيه ومتى؟

وهل هناك تعاليم ونصوص دينية وردت في مصادر التراث المندائي المختلفة تدعو الى التبشير او عدمه اعتمدها رجال الدين لتحديد موقفهم من هذه المسألة؟

هذه الاسئلة وغيرها سنحاول الأجابة عنها بشكل واضح وصريح مقرونة بالنصوص الدينية والشواهد التاريخية قدر المستطاع، بعيدة عن اي اغراض سوى الغرض العلمي وايضاح الحقائق.

فكرة الوحي الأولى

كما نعرف ان دين الصابئة المندائيين دين توحيدي قديم، تنسب تعاليمه ومبادئ شريعته الى النبي الأول (آدم العاقل) ومن جاء بعده من أنبياء الصابئة كشيتل (شيت) ونوح وأبنه سام ويهيا يوهانا وغيرهم. لقد اشار الكثير من الكتاب المسلمين (المفسرين الفقهاء والمؤرخين) الى ان الناس كانوا في السابق على دين الصابئة، وأرجعهم البعض الى النبي شيت وآخرون الى صابئى بن متوشلخ، وغيرهم الى ادريس عازميون المصري (هرمس الهرامسة) .. انظر المسعودي البيروني..وغيرهم. وتعتبر هذه التعاليم هي تعاليم عقيدة النور التي يعتنقها ويمارسها "الآدميون الكونيون" في العوالم الأخرى، كعالم "مشوني كشطا"، الذي يسكنه آدم كسيا او أدكاس (آدم الخفي) وهّوه أنانا (حواء السحابة) وذريتهما والتي هي أصلاً تعاليم الكائنات النورانية في عوالم النور المختلفة المتعددة. (يمكن ان نلمس هذه الفلسفة في معظم النصوص المندائية وقد عالجت دراور هذا الموضوع في عدة دراسات وخاصة في كتابها (آدم كسيا)، وقد انزلت هذه التعاليم بأمر الرب الى آدم وحواء وذريتهما على الأرض، وكان المعلم الملاك هيبل زيوا (كَبرائيل شليها: جبرائيل الرسول)، الذي افهمهم تعاليم عقيدة النور للأنسان على الأرض

وكما جاء في ترجمة النص التالي من صحف آدم المقدسة (كنزا ربا) الكنز العظيم:

"....أنا الرسول الطاهر، دعاني وأمرني ربي، وقال: إذهب واطلق نداءاً (الشريعة المندائية) لآدم وزوجه حواء ولاجياله كلها، نداءا ساميا اطلق لهم وعلمهم كل شيء..." كنزا يمينا ١٣:١٣ وما بعده.

وفي موضع آخر من نفس النص يأمره الرب أن يتكلم مع آدم (كرمز للأنسانية العاقلة) ويعلمه ويكون رحيماً عليه ورفيقاً معه وكما يلي:

"..وتكلم اليه لينير قلبه، وعلّمه لينير فكره، كن له رحيماً، وكن له رفيقاً.

..ابسط المعرفة لآدم ولزوجه حواء ولأجياله كلها..." كنزا يمينا ١٣ : ١٣ وما بعده.

وبعد سرد طويل من الوصايا والأحكام نواجه النص التالي الذي يؤكد انها الكلمة والشهادة الاولى وكما يلي:

"...هذا هو النداء الاول الذي وهب لآدم الرجل رأس البشرية الحية (العاقلة)، فكان الكلمة الاولى وكان الشهادة الاولى..." كنزا يمينا ٢٦: ٥ وما بعده.

ولذلك فقد حفظت تعاليم ملك النور السامي هيي ربي قدمايي (الحي العظيم الأزلي). في هذا العالم من خلال الرسول الأول والأنبياء والمعلمين والآباء القدامى الأولين جيلاً بعد جيل ودوراً بعد آخر [والأدوار هي أدوار الفناء الثلاثة التي واجهها الجنس البشري على الأرض بالسيف والمرض، النار، والماء على التوالي وقد عرجت فيها الأرواح الى العالم الآخر وهم على عقيدة واحدة. وستبقى محفوظة الى نهاية العالم في دورنا الحالي الرابع والأخير الذي يعيش نهايته المحتومة

والتي ستكون بالهواء. هذا بأختصار شديد جوهر فكرة الوحي الأولى التي يؤمن بها الصابئة المندائيون.

نظرة الدين المندائي

من ذلك يمكن ان نستنتج ان دين آدم لم يكن بالأساس لشريحة معينة من البشر إنما هو لكل ذريته واجياله على الأرض. غير ان وجود قوى الشر والشيطان أظهر صراعاً ابدياً مع الأنسانية في هذا العالم المادي (والواقع اصلاً تحت سيطرتهم)، وقد نتج من ذلك وبمرور الزمن وتعدد الأجيال ان يبتعد البعض عن مباديء الشريعة الأولى وقد ساعدت طبيعة الظروف الحياتية والمادية التي يواجهها الأنسان علىذلك الابتعاد أيضاً فظهرت عقائد وأديان مختلفة، ساهم في تأسيسها عدد كبير من الشخصيات التي كانت لها قوة التأثير في المجتمع سواء كان هذا التأثير روحياً، اجتماعياً، سياسياً او اقتصادياً.

وهناك نصوص متعددة تؤشر ما ذكرناه وردت في صحف آدم المقدسة (كنزا ربا) والنص التالي يتحدث عن العصر الأخير (الدور الرابع) بعد الطوفان والى نهاية العالم في عصرنا الحالي ويوضح كيف سيظهر الانبياء الكذبة في بقاع الارض وكيف ستتفرق وتختلف الشعوب واللغات، ويعرج النص للحديث عن الجبابرة والحكام الذين سيظهرون ويثيرون الصراعات والحروب ولاسباب ذاتية ودنيوية وكما يلي :

"...ثم يظهر الانبياء الكذبة ويتجسدون ويكونون في كل مدينة وفي كل مكان، وتتفرق الامم وتنقسم (تتعدد) الالسن في كل مكان وموقع... سيتجزأ العالم ويتسلط الجبابرة على كل جزء وسيغزو كل جزء الجزء الآخر (ستنشب الحروب بين الاجزاء اي المدن، الدول...الخ) وسيسفك الدم في العالم

وكل جزء سيبتدع لنفسه سببا لحربه مع الآخر..." كنزا يمينا ٥٠: ١٥ وما بعده.

ولذلك فإننا نجد أن عدداً من النصوص في الصحف المقدسة قد عالجت هذا الموضوع، وحذرت من الابتعاد عن مباديء عقيدة التوحيد الأولى. كما نلاحظ في النصوص التالية التي يتحدث فيها الملاك كبرائيل الرسول الأول للأنسانية وكما يلي:

"...وكل صالح ومؤمن يثبت ايمانه على العقيدة الاولى سيحصل على النعيم الى الأبد". كنزا يمينا ٤٥:٧. وما بعده.

" أنا الرسول الأول، انادي معلماً واقول لكل الناصورائيين الذين هم كائنون (الاحياء) والذين سيكونون وسيولدون لاتستمعوا لاقوالهم (يقصد الانبياء الكذبة) ولا تنحرفوا عن طريق الحي العظيم (طريق الحياة الصحيح)..." كنزا يمينا ٢٤: ١٠ وما بعده..

ومن خلال هذه النصوص واخرى مشابهة لها يمكن ان ندرك أن الصابئة المندائيين وعبر حلقات التاريخ وحقبه المختلفة حاولوا جاهدين الحفاظ على عقيدة النور والحياة (شريعة آدم والآباء الأقدمين من بعده) وقد خاضوا من أجل ذلك صراعاً مريراً وعلى جميع المستويات (خاصة الفكرية منها والعقائدية).

وعند متابعة رحلتنا بين النصوص المندائية التي تدور حول الموضوع نجد ان قسماً آخر منها يحذر من الأختلاط والتبشير، ومع ذلك فأنها في ذات الوقت لم تهمل بشكل كامل نشر العقيدة الأولى والتبشير بها بل أنها حددت أسس وضوابط لقبول وأحتضان غير الموحدين من أصحاب العقائد الزائفة وجعل الايمان بملك النور العظيم يثبت بقلوبهم.

لنطالع مثلاً النص المهم التالي من الصحف المقدسة الذي يخاطب فيه الملاك كبرائيل (بأمر الرب) اصحاب العقيدة الأولى (الصابئة المندائيين) وكما يلي:

" ...كل ساجد للاشرار والاصنام والصور ابتعدوا عنه، لاتتخذوا منه صديقاً، ولكن اذا اردتموه (تاقت نفسكم اليه) واحببتموه، فاسمعوه الكتب والتعاليم (الكلمات) والتسبيحات التي وهبها لكم ربكم، فاذا استمع (استجاب) واصبح مؤمناً واعترف بملك النور العلي الاله الذي انبعث من ذاته، فاحبوه وقربوه بجانبكم واعطوه من كل ما تملكون. اما اذا لم يستمع ولم يعترف ولم يؤمن فسيحاسب هو (نفسه) على خطاياه " ... كنزا يمينا ١٥: ٢وما بعده.

ونطالع في نص مهم آخر يتحدث عن أسرى هذا العالم وكيفية تحريرهم من العبودية والضلال (اللتين يمقتهما الدين المندائي)، وهو يشير الى أن تحرير الأنسان من _(الأسر سواءً المادي اي اسرى الحرب او الفكري، الذي يتعلق بالأيمان والعقيدة)- هو ليس فقط عن طريق المال إنما الأهم من ذلك تحريره عن طريق الصدقة العظمى والأيمان، وكلام الرب الطاهر الذي يحرر الأنسان فيخلصه ويخرجه من الظلام الى النور ومن الضلال الى الحق ومن العصيان الى الصلاة ومن الكفر الى الأيمان بالرب العظيم وهو بذلك سينال رضا الرب وبركاته وكما يلي:

" إذا رأيتم أسيراً مؤمناً وصادقاً فاعطوا الفدية عنه وحرروه، ولكن ليس بالذهب والفضة وحدهما تحررون الانفس (الاشخاص) بل تحررونها بالصدق والايمان، وبكلام الفم الطاهر تحررون الانفس من الظلام الى النور، ومن الخطأ الى الصواب ومن الضلالة والعصيان الى الصلاة والتسبيح، ومن الكفر الى الايمان بربكم من يحرر نفسه فستكون له حضوة ومنزلة على الدوام..." كنزا يمينا ١٥: ٩ ومابعده.

وتـأكيداً علـى هـذا النـص فقـد ورد فـي نـص آخـر مـا يشـير الـى مكافئـة مـن يحرر أسـيراً وكمـا يلـي:

"... من يحرر أسيراً سيخرج رسول الحي لملاقاته". كنزا يمينا ١٦ :٥.

أمـا فـي داخـل الشـعب فلـم يكـن الأمـر سـهلاً فقـد واجـه الصابئـة نزيفـاً مسـتمراً بيـن أصحـابهم نتيجـة للظـروف المختلفـة التـي تعرضـوا لهـا والتـي كـان تأثيرهـا السـلبي يـزداد يومـاً بعـد الآخـر. لذلـك فقـد عـالجت النصـوص الـواردة فـي الصحـف المقدسـة وبينـت الوسـائل الكفيلـة والناجعـة التـي مـن شـأنها المحافظـة علـى النـاس. نقـرأ مثـلاً ترجمـة للنـص التـالي الـذي يوجـه فيـه المـلاك كـبرائيل حديـث الـرب الـى المؤمنيـن مخاطبـاً إيـاهم قـائلاً:

" علموا الناس حتى لاتتعثر قلوبهم، وأسمعوهم الاقوال العذبة والتسبيحات التي انا جلبتها لكم..." كنزا يمينا ١٩:١٩ وما بعده.

ونجـد فـي نـص آخـر كيفيـة معالجـة االأشـخاص الذيـن يسـقطون بسـبب ضلالهـم ويشـير الـى ضـرورة انتشـالهم مـن الضضـلال ومسـاعدتهم وتقديـم العـون لهـم وزرع الأيمـان فـي قلوبهـم بكـل الوسـائل. ويعـرج النـص ذاكـراً عـن ان مثـل هـؤلاء إذا اصـروا علـى السـير فـي طريـق الضـلال مـن جديـد بعـد كـل مـا قُـدّم لهـم فيؤكـد علـى ضـرورة عـدم إلـتزامهم (مسـاعدتهم) وتقديـم الجهـود والمعونـات الـى مـن هـو بحاجـة فعليـة لهـا والـى مـن يقدرهـا وترجمـة النـص كمـا يلـي:

" إذا ما ضل إنسان مرة فارفعوه واسندوه، وإذا ضل هذا الأنسان للمرة الثانية فارفعوه واسندوه، واذا ضل انسان للمرة الثالثة فارفعوه واسندوه واسمعوه كتب ووصايا وصلاة وتسبيح ربكم. لكن عندما تسندونه ويرفض ان يساعد (الاسناد)، فأقلعوا الكرمة السيئة، وآتوا بكرمة طيبة (جيدة) وأزرعوها بمكانها، لأنهم طالما نادوه باذنه ولم يستمع، وأروه بعينه ولم

ير، فانه في يوم النهاية سيلاقي نهايته، سيسقط في العذاب الذي يهوي به الاشرار والذي منه لايصعدون". كنزا يمينا ٢٢: ٢٠ وما بعده.

لقد واجه المندائيون أخطاراً هددت وجودهم وكيانهم خاصة وأنهم كانوا من أتباع مباديء السلام والصلاح والمحافظة على الحياة، اذ ان عقيدتهم التي يتمسكون بها تنهاهم عن القتل والقتال وعن التمسك بمتاع هذه الدنيا فكيف يتحقق هذا الأمر مع وجود اطماع الأنسان وظهور الدول والتوسع وحب التسلط والسيطرة، ونقرأ النص التالي الذي ينهى بشكل واضح وصريح الأبتعاد عن حب المال والقتل وكما يلي:

"كل من يحب الذهب والفضة ومقتنيات هذا العالم ويقوم بجريمة قتل يرمى في النار الحامية". كنزا يمينا ٤:١٧: وما بعده.

وبنفس المعاني نطالع نصا آخر ينصح أيضاً بعدم الوثوق بالملوك والحكام وقوتهم أو ما يجلبونه من أسرى أو أموال لأن كل ذلك زائل وفي النهاية سوف لن ينقذهم سلطانهم وما يملكون من العذاب والحساب وكما يلي:

"... ايها المختارون لا تضعوا ثقتكم بملوك ومتسلطي ومردة هذا العالم، ولا على الجيوش والسلاح والحرب والحشود التي يحشدون والاسرى الذين يأسرون في هذا العالم، ولا على الذهب ولا على الفضة، يثيرون الصراع ويجمعون الاموال ويتركونها في الدنيا ويذهبون في النار المستعرة، بأيديهم سيحملون الجمر وشفاههم ستكوى باللهيب، سيبطل جبروتهم وسلطانهم ولن يبقى معهم لا ذهبهم ولا فضتهم ولن يكون لهم من يعينهم. لن يكون لهم مخلصا لا ملكهم ولا اموالهم، سيمحى سلطانهم وسينالون بالقضاء جزاءهم". كنزا يمينا ٦:١٧ وما بعده.

وهناك أمثلة عديدة تحث على ترك متاع الدنيا والسلطة والأنشغال بالعبادة والعمل الصالح النافع للأنسان والمجتمع.

وقد تعرض الصابئة المندائيون الى متاعب ومحن كثيرة من جراء ظهور تيارات دينية وسياسية متنوعة في منطقة الشرق الأدنى. خاصة بعد انتشار الديانات والمعتقدات الاخرى والتي اصبحت لها سلطة سياسية وعسكرية تفرض وجودها وأفكارها ومعتقداتها في المناطق التي تركز فيها الصابئة (كما هو معروف من تعدد ديانات بلاد ما بين النهرين وفارس وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية إضافة الى عبادات الهند واليونان والرومان إذ شهدت المنطقة وعلى ممر الستة آلاف سنة الماضية تأثيرات وتفاعلات مختلفة ولاحاجة لنا هنا في الحديث عنها).

ومن ناحية أخرى ادى ظهور اليهود وأنتشارهم في فلسطين والأقاليم المجاورة، وازدياد نفوذهم وتأثيرهم الفكري والسياسي في مناطق تواجد الصابئة المندائيين الى حدوث ردود أفعال قوية تجاههم بسبب مخالفتهم لهم في امور كثيرة سواء ما يتعلق منها بالعقيدة أم بالطقوس.

لذلك فقد ورد في بعض النصوص ما يشير الى ضرورة الأبتعاد عن اولئك الأناس الذين تمردوا على الرب وقد شبه الشخص الذي على هذه الشاكلة في أحد النصوص بالعبد الذي يتمرد على سيده (ربه) وقد أوصى النص ذاته الى الأبتعاد عن اليهود وأشار الى عدم مخالطتهم لأنهم لم يثبتوا على جوهر العقيدة وكما هو موضح فيما يلي:

> "...اوصيكم يا اصفيائي، لاتتصلوا بذلك العبد الزاني الذي يتمرد على سيده. لا تكونوا مع اليهود اولئك الذين لم يثبتوا على قول واحد، احدهم يسيء للآخر، وملك ينقص من الآخر، ونبي يكذب الآخر..." كنزا يمينا ٢٢:١٣وما بعده.

وفي نص آخر نجد حديث الرب الى الملاك كبرائيل شليها (جبرائيل الرسول) بان يذهب ويعلم آدم وحواء وذريتهم ويبلغهم أن لا يضللهم الأشرار (الذين سيظهرون في العالم) لأنهم سوف لن ينفعوهم (في الدار الآخرة) وكما يلي:

"... قل لهم: أن لا يضللهم الأشرار والشيطان الذين لا فائدة منهم..."، كنزا يمينا ١٣:٢٢ وما بعده.

مما تقدم يمكن أن نفهم ولو بصورة مبدئية موقف دين الصابئة المندائيين من التبشير وتأكيده على نشر العقيدة المندائية، ومع ذلك فان الامر لم يكن سهلا خاصة اذا عرفنا انهم يعيشون في خضم المخاطر والقوى المتعاظمة في المنطقة والتي عمدت ليس فقط على مخالفتهم بل جاهدت بشتى الوسائل على اجبارهم ترك ديانتهم، وقد قتل الكثيرون منهم وتشرد آخرون ونطالع في النص التالي ما يشير الى وعد الرب المؤمنين والثابتين على العقيدة الاولى بأنهم سيكونون دون خطيئة طاهرين في دار الآخرة في حالة تعرضهم للقتل، بسبب حبهم لربهم وكما يلي:

"...كل من يسلم جسمه للقتل بسبب محبته لربه فسوف يكون زكيا (طاهرا) دون اثم...". كنزا يمينا ١٦: ١٠ وما بعده.

ويمكن لنا ان نحدد الفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي بأنها من المراحل الصعبة والمهمة في حياتهم، والتي كانت نواة لبلورة العديد من الأفكار التي وصلت الينا في الوقت الحاضر، لذلك سوف نركز حديثنا القادم عنها وعن المراحل التي تليها.

عاش المندائيون الشرقيون الذين سكنوا بلاد ما بين النهرين وأجزاء من بلاد فارس حياة هادئة نسبياً إذ لم يصلنا عنهم انهم مروا

بأحداث هامة هددت وجودهم. اما المندائيون الغربيون فقد عاشوا منافسة شديدة مع اليهود وأصحاب العقائد الآخرى خاصة في بلاد الشام والمناطق المجاورة لها منها، وكانت أفكار المندائيين تجد آذاناً صاغية عند الكثيرين من سكان هذه المنطقة مما جعل اليهود يكيدون لهم اينما وجدوا، ويشددون الضغط عليهم خاصة في الفترة التي سبقت مجيء يوحنا المعمدان، فأصبحوا مشردين في مناطق بعيدة نسبياً عن تأثير اليهود. وسكن بعضهم حران وجبال ميديا وطور بروان وجبل الكرمل والناصرة، وكانت لهم مراكز متعددة على ضفاف نهر الأردن والمناطق الجبلية في فلسطين وما جاورها وخاصة تلك التي تكثر فيها العيون والمناطق البعيدة عن مراكز المدن الكبيرة، وحاول الكثير منهم الأبتعاد عن مدينة أورشليم التي كانت أحد المراكز المهمة لتواجد اليهود، فأسسوا مراكز جديدة خارجها ليتسنى لهم العيش وتأدية طقوسهم وتعليم أتباعهم.

يدل على ذلك ما رُوي من أخبار المندائيين في هذه الفترة والذي ورد جزءا منه في بعض المصادر المندائية خاصة في كتاب "دراشا إديهيا" وديوان "هران كويثا" ونصوص متفرقة اخرى.

وقد شهدت نهايات القرن الاول قبل الميلاد ظهور النبي يهيا يوهنا (يحيى بن زاكري، يحي بن زكريا، (يوحنا المعمدان) الذي تربى بين المندائيين بعيداً عن أورشليم في طور بروان (الجبل الأبيض) وعمد في جبال ميديا اي طور إد مداي (جبل المندائيين)، ثم جاء الى أورشليم بأمر من الرب ملك النور العظيم بصحبة الملاك (أنش اثرا) وبتأييد قوى النور، جاء يتحدى طغاة اليهود وجبروتهم ويعلن بصوت عالٍ عن عقيدته (عقيدة آدم)، وأخذ يصبغ (يعمد) الناس في نهر الأردن بواسطة (يردنا الماء الحي) فكانت الجموع الغفيرة من الناس تجتمع حوله وتتعلم

منه وتطلب غفران الرب ورحمته على يديه فتستمع لأقواله وتصطبغ بصباغته وترتسم برسم الحياة والطهر.

ولم يكن يبغي سوى هداية الناس لطريق النور وإسماعهم وصايا الرب، فكان يعلمهم في الليل ويصبغ المؤمنين والتائبين في النهار كما تبين ذلك العديد من نصوص كتاب دراشا إد يهيا (كتاب يحيى) فنراه يفتتح بعضها بالصيغة التالية:

"يهيا درش بليلوي، يوهنا برامشي إد ليلي، يهيا دارش بليلوي وأمر...":
يحيى يعظ في الليالي، يوحنا عند امسيات الليالي، يحيى يصرح في الليالي
ويقول...":

وقد كان الناس يحبونه ويلتفون حوله ويأخذون بوصاياه وتعاليمه لقد كان نقياً طاهراً عابداً لم يدنسه أي شيء ولم يطلب ملكاً أوعرشاً دنيوياً أو عيشاً رغيداً ولم ينغمس بشهوات أوملذات هذه الدنيا. وكما نجده يتحدث عن نفسه في النص التالي من كتابه:

"... انا حررت نفسي من العالم ومن الأعمال المقيتة والسيئة والباطلة.
سألني السبعة الأموات الذين لم يروا الحياة: بقوة من تنتصب؟ ومن تسبح
في صلواتك؟ قلت لهم: أني قائم بقوة ابي وتسبيحات الكائن الذي نصبني.
انا لم أبن بيتاً بين اليهود، ولم أنشيء عرشا في أورشليم، لم انغمس في
حب أكاليل الزهور، (الشهوات)...". دراشا اد يهيا ٧٧: ٣ وما بعده.

وقد عمد ابونا "يوحنا المعمدان" آلافاً مؤلفة من الناس وكما يقول هو:

"... لمدة اثنين واربعين عاما من حياتي أصبغ وقد صبغت الافاً
وآلاف..."، كنزا ربا بوثة وفاة يوحنا. وكذلك بنفس المعنى راجع ديوان
"هران كويثا" ٤٥ وما بعده وكذلك في دواوين اخرى.

وحتى الخارجين عن المندائية والذين سموا أنفسهم ظاهرا يهودا فقد صبغهم ونقلهم من الظلام الى النور أي من اليهودية الى المندائية، وحتى الذين هم من أصل يهودي هداهم وعلمهم وصبغهم بصبغة الحياة والنور.

ونجد في النص التالي من الصحف المقدسة أن ملاك الرب (متجسدا مع يوحنا المعمدان بلباس ليس من لحم ودم) يأتي بقوة الرب وأمره الى أورشليم في زمن الملك (بلاتس) فيعمل المعجزات ويساعدهم ويهديهم ويكسب الصادقين بأيمانهم اليه من اليهود فيكونون مندائيين مؤمنيين ويخرجهم من الظلام الى النور ومن ضلال افكارهم الى الحقيقة ويعلمهم أن يهتدوا الى الله ورب جميع المخلوقات "ملك النور العظيم" وكما يلي:

".. ويأتي بسنين بلطوس (بلاتس) ملك الدنيا، انوش اثرا يأتي الى الدنيا (العالمين) بقوة ملك النور العلي، مشافيا للمرضى ومفتحا (لعيون) العمي ومطهرا للجرب ومقيما للمقعدين والكسيحين فيمشون. وجاعلا الصم والبكم يتكلمون، ومحييا للموتى، هاديا للايمان (اناسا) من اليهود _(اي اخرجهم من اليهودية وادخلهم في المندائية فاصبحوا بدرجة "مهيمني" المؤمنين وهو مصطلح مندائي يطلق على المتدينين المندائيين)_ ومريا اياهم انه يوجد موت وتوجد حياة، ويوجد ظلام ويوجد نور، ويوجد خطأ (كفر، ضلال) ويوجد صواب (ايمان، حق)، وهاديا بذلك اليهود الى اسم ملك النور العلي (اي يجعلهم مؤمنين بعقيدة المندائيين التي هي عقيدة الرب ملك النور)...."
كنزا ربا ٢٩: ٨ وما بعده

هنا نجد دعوة الرب للانسان في العودة الى طريق الايمان الاول (عقيدة آدم) عن طريق رسل الرب وانبياء الحق، من ذلك نعرف بوضوح ان عددا ليس قليلا من اليهود قد دخل المندائية فعلا ومما يؤكد ذلك ايضا

كـون قـائد الدعـوة الـى ذلـك هـو النبـي المبـارك (يحيـى يوحنـا) وهـو مـن اصـل يهـودي عمـد بقـوة الـرب بواسـطة المندائييـن فـاصبح احـد المعلميـن (الانبيـاء) الكبـار لدينهـم وربمـا فـي ذلـك حكمـة هـي ان يخـرج انسـانا مـن اليهـود ليقودهـم الـى المندائيـة ((ويخلصهـم مـن شـراك اليهوديـة))، علـى حـد التعبـير المندائـي، بواسـطة التعميـد بالمـاء الحـي وكلمـات النـور. وفعـلا فقـد نجـح فـي كسـب الجمـوع الغفـيرة الـى دعوتـه ونجـد ذلـك واضحـا فـي سـيرته وكذلـك فـي مجمـل الاحـاديث التـي دونهـا فـي كتابـه المقـدس.

ومـن هنـا يمكننـا ان نلاحـظ ان يوحنـا المعمـدان كـان ينـوّر النـاس بالمعرفـة الحقـة ويعمدهـم باسـم الحـي العظيـم (ملـك النـور)، ويكسـب الأنفـس التائهـة ويضمهـا الـى حلبتـه، وبذلـك نجـده يصـف نفسـه "بصيـاد السـمك"، الـذي يدخـل الهـور فـي قاربـه يجمـع السـمك الطيـب (الجيـد) ويدخلهـم فـي شـباكه الطـاهرة ويطـرد الصيـادين الآخريـن (عنهـم) [أي المبشـرين مـن الأديـان والعقـائد الاخـرى]، ويقيدهـم ويمنعهـم مـن اصطيـاد وسـرقة أسـماكه "المسـماة بأسـمه" والمنتشـرة فـي الميـاه.

عن ذلك يتحدث يهيا يوهانا ويخاطب الصيادين الآخرين قائلاً:

"...(ارجعوا) سمككم...انها قد نتنت... وليس من أحد يود ابتياعها. لقد جئتم بصيدكم من الأهوار البعيدة... اللعنة عليكم... اللعنة على من يشتري منكم ... اللعنة على دلالكم، اللعنة على قاربكم الذي لم تملأوه... أنكم لم تأتوا بالملح لترشوه على سمككم الذي اشتريتموه... وفيما كان الصيادون واقفين، يقترب منهم "الصياد" بخفة... ويُعد شبكة الصيد (السلية)، وينشرها عليهم فيصيدهم ويسحبها... فيتوسلون اليه "حررنا من شباكك... حتى لا تقفز سمكة من سمكاتك الى قاربنا... نحن لا نصيد سمكاً يسمى باسمك.." ويقول هو: "حين سمعتهم يتحدثون هكذا ضربتهم بهراوتي المصنوعة من الحديد... وربطتهم بحبال من ليف وحطمت قواربهم وأحرقت شباكهم. وأرغمتهم على أن يقسموا بأن لا يصيدوا السمك الطيب بعدها، وأن لا

يسرقوها مني... وغرزت فيها القصب لتجف في الشمس... وكان الصيادون يضطجعون تحت ولم يعد بوسعهم النهوض... ولم يعد بوسعهم أن يضربوا السمك بالفالة". (دراشة يهيا فصل "صيدا" راجع النص الموجود في (JB) P143، الترجمة هنا اخذت من كتاب اصول الصابئة المندائيين عزيز سباهي ص ٧٩.

ومن خلال ما ذكرناه يمكن ان نعثر على بعض التعبيرات الأصطلاحية التي تهمنا في هذا الموضوع نطالع مثلاً:

"...نحن لا نصيد سمكاً بأسمك..." وهو يدل على ان المندائيين جماعته كانوا جماعة مميزة اذ أنها تسمى بأسمه.

وكذلك تعبير "السمك الطيب"، اشارة الى المؤمنين من أتباعه وهم الصفوة من المختارين الصادقين، وتعبير "غرزت فيها القصب لتجف في الشمس"، اشارة الى انه حافظ عليها وجعلها بحالة جيدة غير متعفنة، اي انه حصنها بالايمان والمعرفة، ومعروف أن السمك إذا جفف بواسطة (رش الملح) عليه وثُبت على القصب تحت الشمس فلن يتعفن، هكذا المؤمن إذا صلُح إيمانه وثَبت فلن ينحرف أو يضل.

اما وجود الصيادين الآخرين والتعبيرات الأصطلاحية الخاصة بصيدهم وشباكهم وقواربهم والسمك الذي يصيدونه وحالته بعد الصيد كلها تشير الى وجود التيارات الدينية المختلفة في المنطقة وسعيها الدؤوب لكسب المناصرين لها، لذلك فقد كان هناك سباق ومنافسة لكسب الناس كل لمذهبه الخاص هذا اضافة الى محافظة كل منهم على جماعته وتحصينهم بكل الوسائل المتاحة لحمايتهم من التأثيرات الدينية والفكرية المناهضة لهم وأن النص الذي ذكرناه يثبت ذلك.

وفي موضع آخر من نفس الفصل يتم الحديث عن صيد السمك في الليل بعد طرد ظلمته بواسطة اشعال الضوء، وهوتشبيه جميل يقصد به ان النور (نور المعرفة والأيمان) يزيح الظلام وتضاء بذلك عقول الناس فيسرعون متهافتين ليجتمعوا حول منبع النور الصافي الذي بعثه لهم الرب العظيم فيدخلون شبكته ويدخلهم قارب النجاة والايمان ويخلصهم من حالة الظلام التي يعيشون.

من ذلك نستنتج أن يوحنا المعمدان حاول جاهداً المحافظة على الصابئة المندائيين أتباعه ودفع مسيرتهم بقوة نحو الأمام وقد دعا اليهود للتعميد وطلب غفران الخطايا والألتزام بالفضيلة وأشار المؤرخ اليهودي (جوزيفوس) في كتابه "العصور القديمة"، الى ذلك كذلك اشار الى شدة تعلق الناس بيوحنا وقد ذكر انهم كانوا مستعدين في كل شيء للتصرف وفق مشورته. (لمزيد من المعلومات راجع المصدر السابق ص١١٤). ومن ناحية اخرى فأن يوحنا المعمدان قد ساعد في هداية الضالين واعانة المضطهدين من اتباعه المندائيين الذين عانوا كثيرا قبل مجيئه خاصة في مدينة أورشليم وما جاورها وكما يذكر ذلك في بعض العبارات في كتاب دراشا إد يهيا :

"... لم أرغب في النزول الى مدينة أورشليم ... وحدثت فيها الأضطهادات ضد أتباعي... ".

لذلك فأنه عندما ذهب الى أورشليم أخذ يبشر بالدين الذي سار عليه المندائيون قبله وقد أعطى اصحابه القوة والمنعة، وترد في نفس الكتاب نصوص كثيرة تتحدث عن سيرته وسعيه المستمر للحفاظ على الناصورائيين وخاصة من حقد ومكائد اليهود وحكامهم وكهنتهم، فقد أصابهم الرعب والاستياء من قوة دعوته وأزدياد أتباعه وتلاميذه.

وبعد وفاته في الثلث الاول من القرن الأول الميلادي يستمر أغلب تلاميذه في نفس الطريق "المندائية" الذي سلكه معلمهم وانتشروا في العديد من الأماكن يعلمّون ويسندون بعضهم بعضاً ومع ذلك فقد أثرت وفاته عليهم تأثيراً واضحاً باعتبارهم قد فقدوا دعامة كبيرة كانت تسندهم في أصعب الظروف خاصة وأن الناس في منطقة فلسطين وما جاورها كانت تعيش حالة من التوتر والنقمة وعدم الأستقرار نتيجة سوء الأوضاع السياسية والأقتصادية، هذا اضافة لوجود الصراع الديني والمذهبي بين الطوائف المتعددة التي كانت تعيش في تلك المنطقة.

من الأمور المهمة التي يجدر بنا التوقف عندها في المرحلة التي تلت وفاة يوحنا هو دخول المؤمنة "مَرَيي" الى دين الصابئة المندائيين بعد تركها لديانتها الاولى "اليهودية"، [مريي شامرت يهدوثا (مريي تركت اليهودية)...., JB 130]. ولم تكن امرأة عادية بل كانت ابنة أحد كبار كهنة اليهود وهي امرأة معروفة بين قومها، وتسرد نصوص كتاب "القلستا" وكذلك كتاب "دراشا إد يهيا" قصة تعرفها علىالمندائيين وأيمانها بدينهم وادراكها جوهر عقيدة الناصورائيين [وهم فقهاء المندائيين والطبقة القيادية العليا التي يرجع اليها المندائيون في تأدية طقوسهم وتعليمهم ومعظم شؤون حياتهم]، وكيف انها تعلمت خفية بعد مراقبتها لهم. وتسرد القصة أحداثاً مطولة حول ذلك، وكيف انها لم تقبل بسهولة بين المندائيين ثم اصبحت أحد الرموز الدينية العظيمة التي يضرب المثل بها وبأيمانها وصبرها وتحملها الضغوط الكبيرة من قبل أهلها والكهنة والحكام من اليهود. وقد باءت جهودهم بالفشل في اقناعها بالارتداد عن دين الناصورائيين، وقد أصبحت فيما بعد صوتاً قوياً للأيمان ومشعلاً للنور يتجمع حوله الناس ليهتدوا ويزدادوا تمسكاً بعقيدتهم كما كان يفعل من قبل النبي يوحنا المعمدان لانها عاصرته ونهلت من نبع المعرفة الذي فاض منه.

ولنطالع مثلاً بعضاً مما كان يقال عنها من قبل اليهود، عندما شعروا أنها تلتجأ الى الناصورائيين من المندائيين وتترك شريعة اليهود وكما ورد في كتاب القلستا (القسم الثاني) النياني (أناشيد وصلوات يوم الجمعة صباحا):

".... (ان مريي)... صارت تكره اليهودية وتحب الناصيروثا، انها تكره باب بيت الأمة (الهيكل) وتحب باب المشخنا (المندي، المعبد المندائي) ، انها تكره (الطوطفتا) القبعة (التعويذة) وتحب أكليل الآس [وهو الأكليل الذي يتوج به الشخص المصطبغ أثناء صباغته]، يدها تعمل الأعمال يوم السبت، وفي يوم الأحد تمنع يدها عنها، ان مريي (اصبحت) تكره الناموس [قانون شريعة اليهود]. " CP. p. 173:7 ff (No 149)

وفي آخر هذاالنص نجدها تذكر أنها لم تحصل الا على حب منداهيي (العارف بالحياة) والذي يسندها لتنتقل من الظلام الى النور وكما يلي:

"... الذي أحببته لا أكرهه والذي كرهته لا أحبه (ولا حب بي) غير حب منداهيي الذي يقف معي ويمد لي يد العون والقوة لأنتقل من مكان الظلام الى مكان النور...". CP. p. 174 :2f (No.149)

ومما هو جدير بالذكر في هذا الموضوع ورود التعبير الأصطلاحي الذي هو الأنتقال من الظلام (مكان الظلام) الى النور (مكان النور) وهو تعبير اصطلاحي مندائي (غنوصي)، يستعمل كثيراً في النصوص المندائية وفي معظمها يرمز الى حصول التغيير، المنهج والعقيدة، من السلب الى الأيجاب، ومن الخطأ الى الصواب أي من الظلام الى النور، وعلى ذلك يستند جوهر الصباغة (التعميد) المندائي، إذ انه يخرج الأنسان من ظلام المادة الى نور الروح (المعرفة).

ان ما ذكرناه (حول يوحنا وتلامذته ومريي)، يشير الى المنافسة والصراع الحاصلين بين اليهود والصابئة المندائيين وبالأحرى مع الناصورائيين، اضافة الى ذلك فإن النصوص الدينية الواردة في دراشا اد يهيا والقلستا حول مريي، توضح جانبا من معاناة المندائيين وخاصة المؤمنين الجدد من الاديان والعقائد الاخرى.

وبهذا الخصوص يتحدث كتاب دراشا اد يهيا عن مريي وعن الناصورائيين (أصحابها المؤمنين)، بأنهم يتمسكون بقوة بعقيدتهم وهم لا يهتزون أمام كل الضغوط التي تحاول أن تزعزعهم عن (العقيدة الأولى)، ويذكر عن ضعيفي الأيمان بأنهم لن يصمدوا أمام الصعاب وهم كالطيور الضعيفة التي تسقط عندما تهب العاصفة. بعد ذلك تظهر اشارات تلّوح لنا بحصول اضطهاد ومضايقات للمندائيين ومريي مما يضطرها وأخوانها ان يستقروا عند مصب الفرات. وبذلك يوصفون بانهم الاصحاب الذين يلتقون حول مريي الجفنة المنتصبة والمستقرة عند فم الفرات. JB. p 134:1f ويعلق الباحث عزيز سباهي في هذا الخصوص على الرسالة الخامسة والثلاثين من دراشا اد يهيا قائلا: "تتكرر الاشارة الى مرياي التي استقرت (في ذلك الموضع)، وكيف كان اليهود يرنون اليها وهي تبشر بدينها والأسماك والطيور تتجمع حولها (اشارة الى الناس الذين ينجذبون نحو المندائية) لتستمع الى صوت مريي ولتنتشي بالعطر الذي يفوح منها". اصول الصابئة المندائيين ص ١٣٧.

من ذلك كله يمكن أن نفهم الأسباب التي دعت المندائيين (ومنهم الناصورائيين) وتلامذة يوحنا المعمدان ومريي واصحابها ومن ادخلتهم للمندائية معها الى ترك أورشليم وحوض الأردن والأستقرار عند مصب الفرات ثم الهجرة من هذه المناطق عن طريق جبال ميديا الى مدينة حران، التي استقبلتهم والتحقوا باخوان لهم في الدين هناك وحيث لا سبيل لحكام اليهود في مطاردتهم والنيل منهم لأن مناصريهم

ومن يحميهم هناك من ملوك البارثين الذين لم يكونوا على علاقة جيدة مع الرومان (المسيطرين على بلاد الشام). وقد سجل هذه الهجرة وأسبابها ديوان هران كويثا (حران الداخلية) والذي وصف هذه الهجرة بأنها كانت بعدد ستين الفا من الناصورائيين الذين كان على رأسهم الملك أردوان (اردبان) الذي يعتقد أنه الملك البارثي أرطبانوس الثالث الذي عاصر تلك الفترة, لذلك فإن معظم الباحثين يعتقدون ان هجرة هؤلاء المندائيين قد حدثت بعد سنة ٦٠ م، وقبل ثورة اليهود الأولى التي حدثت سنة ٦٦ م ضد الرومان. ومن الجدير بالذكر ان المندائيين ما يزالون الى اليوم يقومون بطلب الرحمة وغفران الخطايا الى اولئك الـ ٣٦٥ ترميذي، الذين هاجروا من أورشليم في صلاة "أبهاثن قدمايي" اي (ابائنا القدامى)، ويقيمون لهم طعام الغفران (اللوفاني)، "اولئك الـ ٣٦٥ ترميذي الذين نزحوا من مدينة اورشليم." CP. 170 :14f

ويضيف ديوان "هران كويثا" ان الرب قد ارسل الملاك "انش اثرا" ليضع لليهود القصاص العادل جزاءا على ما فعلوه مع اتباعه الناصورائيين الذين اريقت دماء الكثيرين منهم الى حد لم ينج منهم الا القليلين، لذلك تدمر أورشليم ويحرق الهيكل وتحول الى أكوام من الخرائب. انظر "هران كويثا" ٦٩ وما بعده.

وقد استقر المهاجرون مع اخوانهم المتواجدين قبلهم في بلاد ما بين النهرين، وكثرت مقراتهم ومراكز تجمعهم، وكان انتشارهم واسع في مناطق جنوب العراق وخاصة ميسان ونواحيها، وكان لهم ايضا صدىً وتأثيراً واضحاً في بقية الاقوام الذين جاوروهم مما دعا البعض الى ان يؤمن بديانتهم وينضم اليهم والشاهد التاريخي هو انضمام فاتق والد ماني وعائلته الى المندائيين المتواجدين في ميسان واعتناقهم لدينهم، وقد ولد ماني بينهم سنة ٢١٦ م وترعرع هناك حتى الرابعة والعشرين

اي حتى عام ٢٤٠م حيث انفصل عنهم وشرع يدعو الى مذهبه الخاص الذي سمي بالمانوية، والى ذلك اشار بن النديم، الفهرست, ص٤٠٧.

انتشر مذهب ماني بشكل خاص في بلاد فارس واماكن اخرى، كالعراق ومصر وقد اقتبس من الكتابات والنصوص المندائية الشيء الكثير اضافة الى تأثره الواضح بأفكارهم ومعتقداتهم وتعاليمهم، وقد وصل الى حد اقتباس نصوص وعبارات كثيرة من كتب ومخطوطات المندائيين والتي يمكن الاستدلال عليها بشكل واضح في النصوص والتراتيل المانوية خاصة تلك التي عثر عليها في نجع حمادي في مصر.

ورغم ان النصوص المندائية لاتذكر شيئا واضحا يدل على هذه الحادثة الا ان توثيقها من قبل الاخرين يثبت بنسبة كبيرة ان والد ماني وعائلته قبلوا بين المندائيين والاهم من هذا ان ماني نفسه ولد بينهم وتعهدوه وعلموه اصول دينهم ومعتقداتهم ومن مضمون الكتابات المانوية وفلسفتها يتأكد لدينا بأن ماني لا بد ان يكون قد اطلع بشكل واسع على كتاباتهم وتعاليمهم ودواوينهم السرية خاصة تلك التي تحتوي رسومات ومصطلحات باطنية.

ان هذه الحادثة تشير الى ان الصابئة المندائيين في فترة القرن الثالث الميلادي واثناء تواجدهم في جنوب العراق كانوا قد قبلوا بعض الجماعات التي آمنت بدينهم ومعتقداتهم، اذا لم نقل انهم قد بشروا على نحو واسع. ونعتقد انهم قبلوا وقربوا بشكل خاص اولئك الذين يلتقون معهم في بعض المعتقدات ويمكن اعتبار الحادثة مؤشرا على ما ذكرناه (رغم عدم ذكرها في المصادر المندائية)، ومن المرجح انها لم تذكر بسبب انشقاق ماني عنهم وعرضه لبعض المعتقدات والآراء بما يخالف منهجهم، ومن الطبيعي ان يكون لديهم موقف حازم بتجاهل دعوته والاشارة بالتعابير الرمزية عن المنشقين، وعدم اتباعهم او التأثر بهم وبيان ضلالهم عن جوهر العقيدة. وهذا هو اسلوب الكتابات المندائية

وطريقة تعاملها مع مثل تلك الحالات، فلم تهتم كثيرا بتدوين التاريخ او الحوادث التفصيلية التي واجهتهم عبر المراحل الزمنية التي عاشوها.

ولم يرد في الكتابات المندائية ذكر عن قبول اعداد جديدة بينهم في الدين منذ الفترة التي تلت القرن الاول الميلادي، وخاصة في الفترة التي تبعت ظهور الاسلام، الذي اثر تاثيرا واضحا على شعوب المنطقة والى وقتنا الحاضر مما يدل على ان باب التبشير اصبح ضيقاً اذا لم نقل انه موصد، يضاف الى هذا وجود اتجاه فكري مندائي (ديني وشعبي) متوارث عن بعض الافكار القديمة مما يمكن ان نسميه بـ"ردة فعل" خاصة بعد المعاناة التي عاشوها بين اليهود ومن ثم السيطرة المسيحية والاسلامية (خاصة) من الناحية الدينية والسياسية والتي جسدت مفهوم التبشير بشكله الواسع والمعروف حاليا.

من مجمل العرض السابق استطعنا ان نتلمس من خلال بعض النصوص والشواهد الدينية والتاريخية التي بيناها ما يمكن ان نستدل به على وجود التبشير في الدين الصابئي المندائي ولو بحدوده الضيقة او (الموسعة في احيان قليلة) ضمن بعض الضوابط على الرغم من ان الاصول المبدئية للدين تدل على انه كان تبشيريا لكل الناس على الارض. ونعتقد ان بعض هذه الضوابط والافكار التي تقلص او تمنع من دخول الوافدين الجدد قد حدثت في مراحل تالية وهذا ما يفسر الحذر من قبول هؤلاء دون التأكد من صدق ايمانهم واخلاصهم للدين والشعب المندائي، اذ ان بعض الكتابات المندائية اشارت بشكل رمزي الى ان المندائيين والترميذي الذين هم من اصل يهودي والذي هم احفاد تلاميذ يحيى يوحنا كانوا قد غيروا بعض تعاليم الدين بسبب تاثرهم بالروح الشريرة لان بذرتهم في الاصل كانت من اليهود اي لم تكن طاهرة. انظر "هران كويثا" السطر ١٠٠، وكذلك فقد حدث ذلك مرة ثانية بعد عدة اجيال عندما تبعوا وساندوا بعض المنشقين او الزائغين عن النهج

الحقيقي للدين الصابئي المندائي وهذا ما نراه واضحا في حادثة "قيقل" والتي وقعت سنة ٨٦ قبل مجيء الاسلام، فقد كان قيقل من كبار رجال الدين ، وسلك منهجا مغايرا بعض الشيء عن منهج الدين الاصلي واظهر لتلاميذه واتباعه من رجال الدين بعضا من الكتابات المخالفة للعقيدة والمستوحاة من قوى الظلام (على حد التعبير المندائي) وعندما ندم ورجع الى جادة الصواب احرق هو ومن تبعه كل هذه الكتابات، ولم يحتفظ بها الا الذين كانوا من اصل يهودي. وقد وردت هذه الحادثة في ديوان "هران كويثا" سطر ١٠٨ وما بعده، لذلك فقد اثرت هذه الحادثة واخريات غيرها (لم يكشف التاريخ عنها) الى غلق التبشير وزيادة انعزال الصابئة وانطوائهم على انفسهم وانزوائهم شيئا فشيئا من الحواضر ومراكز المدن المهمة الى القرى والارياف ومناطق الاهوار خاصة اذا عرفنا ان السكان الذين حولهم اصبحوا عموما من المسلمين ومعروف ان من يغير دينه منهم يعتبر مرتدا وعقوبته القتل.

بقي لنا بعد هذا العرض ان نبين ماهية التبشير من وجهة النظر الفلسفية والدينيةللمندائيين، ونعلل من خلالها ظاهرة عدم التبشير بالدين وحصرها ضمن حالات استثنائية محدودة (تخضع لضوابط شديدة في بعض تلك الحالات التي واجهتها).

من المعلوم ان الديانة الصابئية المندائية ديانة معرفية اي (غنوصية)، وهي تعتمد (المعرفة) اساسا يوضح فلسفة منهجها العقائدي. ان هذه المعرفة لا تأتي عن طريق التعليم والدرس وحدهما انما بالأساس تعتمد على الفيض الآلهي الذي يظهر ذاته في كشف معرفي روحاني غير مادي، لايعتمد على البشر في اظهاره انما يعتمد الطهر والنقاء الروحي والجسدي (المادي) ليصل مرحلة الذروة والتي يتمكن فيها من الرؤية الروحية والاتصال بقوى النور، ومن ثم الاطلاع على

الاسرار المقدسة وفهم جوهرها وادراك معارف الكون والوجود المختلفة.

ان سر (المعرفة) هذا في نظر المندائيين ومعظم الطوائف المعرفية (الغنوصية)، لا ينتقل الا لانسان نقي النسب اي من نفس جذر المندائيين، وهذا عموما كان النهج العام الذي سلكته العديد من الديانات والعقائد خاصة قبل ظهور المسيحية.

وعموما فان اعتقاد الطوائف المعرفية (الغنوصية) ينصب في التزامها باسرار او (مقدسات)، لكي تساعد وتنقي الروح لتضمن ولادتها من جديد في جسد روحي، او تحررها وصعودها من عالم المادة، وهذه تكون عادة مطابقة لطقوس تقليدية وموسمية (احتفالية) موجودة، والتي لها ترجمة باطنية وفي حالة الناصورائين –المندائيين، تعتمد هذه الترجمة من قصة الخلق، خاصة على الانسان الكوني (الآلهي) آدم كسيا (آدم الخفي) ككاهن او ملك ممسوح ومتوج انظر "دراور، آدم كسيا، ص، ٨.

من ذلك يمكننا ان نفهم انه في الحالة الانسانية او الجنس البشري يجب ان يكون ممسوحا ومتوجا كاهنا وملكا، فيكون صورة مماثلة للملك الالهي، وهو فوق كل شيء يعد رمزا مقدسا للاتحاد والأنبعاث (القيامة).

وعندما يرسم أي كاهن مندائي فأنه يمسح بالزيت (زيت السمسم، اي الزيت المقدس) ويتوّج ويعطى شارة الملك- وهي الخاتم والصولجان والتاج، لأنه الممثل الأرضي للأنسان السماوي أو الكوني.

وكل شخص مصطبغ بالمصبتا (متعمد بالمعمودية) يدخل في جسد آدم الكوني، كتوقع لأتحاده (لوفا) مع الجسد المفتدى للنخبة، بواسطة رشمه (رسامته) بماء مقدس و(تتويجه) بأكليل آس، هذه الأحتفالات تعاد وتكرر ساعة موته ايضا مع اختلاف أن رشمه

(رسامته) تكون بالزيت -(بعد طمشه ثلاثاً بالماء ورشامته به)-، لأنه كمؤمن حقيقي يموت في حالة من النقاء سيصبح بعدها واحدا مع الأنسانية (الكونية)، الممنوحة حالة روحية والتي تدعى آدم كسيا (الخفي، الكوني) لمزيد من التفاصيل انظر المصدر السابق ص١٠٤.

وبعد الموت تتسلم روح الميت جسدها الروحي خلال الخلق المتجدد الفائق للطبيعة لجسده الكوني، فيكتب له عندها التحرر والخلاص والوصول الى عالم الانوار الذي اتت منه قبل ان تكون في الارض، والى تلك الفكرة يشير عزيز سباهي الى:

"ان الغنوصية تنطلق من أنها تضع في أيدي النخبة المختارة تلك الأسرار الخفية التي تيسر لها سبيل الخلاص وتمكنها من التغلب على القوى الشريرة التي خلقت العالم. ومهمة العمل الغنوصي هي تحرير النفس البشرية التي هي في الأصل شرارة، قبس من الجوهر المقدس من أسر الجسد الدنيوي"، اصول الصابئة المندائيين ص ١٤٦.

من هذا كله يمكن ان نفهم ان مبدا انتقال المعرفة يكون عن طريق النخبة المختارة (بهيري زدقا)، التي حافظت على مباديء معرفة العقيدة الأولى جيلاً بعد آخر والتي تظهر فيهم عن طريق تنقية الجسد من قيود العالم المادي، بواسطة الممارسات الطقسية والمعرفية الناصورائية حيث يفتح للمؤمنين والمتقين باب التوبة والخلاص والمعرفة، ولذلك فقد حدث تشديد في الالتزام بهذه الممارسات وكذلك في سرية نقل المعلومات بأعتبارها من الأسرار المقدسة التي لاتكشف الا لأقرانهم من المتقين.

وقد كان ذلك سبباً مهماً في ان لايكون هناك قبول الا لمن كان منهم او من نوع الفرع الأصيل في شجرتهم الموروثة من نسل آدم النقي لأن الوالدين من فروع اخرى - (وهم اصحاب العقائد والأديان الأخرى غير المندائية) - لم يكونوا في الأصل قد تنقوا أو تطهروا

بواسطة تلك الممارسات والمعارف والأسرار التي تحدثنا عنها في اعلاه هذا اضافة الى ظهور الختان والممارسات الطقسية المخالفة لهم في كثير من الاديان.

وقد شدد "الناصورائيون" على رفض هذه الامور الى حد التزمت والعزلة واتخاذ مواقف صلبة خاصة في غضون الحقب المتأخرة ولحد الآن.

ان موقف الصابئة هذا لم يكن غريبا في المنطقة، لأن التبشير بمعناه الواسع والمعروف حالياً لم يبدأ الا مع ظهور المسيحية حيث ان اليهودية لم تكن ديانة تبشيرية. الا بعد تفرقهم وشتاتهم, اذ لم يكن ثمة تبشير في زمان العبرانيين القدماء، الا انهم بعد السبي، على مايخبرنا الكتاب القدس ابتدأوا ان يفسروا الشريعة للشعب.٠انظر (قاموس الكتاب المقدس ص١٧٣).

لقد كان وما يزال اليهود يعتقدون بانهم شعب الله المختار الذي لايقبل الداخلين به. والى الآن لايحسب يهوديا من وُلِدَ من أب يهودي وأم غير يهودية، وقد تساهلوا في بعض الأزمان بقبول الأشخاص المولودين من أم يهودية وأب غير يهودي واعتبروهم يهوداً من الدرجة الثانية، ومثل ذلك نجده في معاملة اليهود السود أو من هم ليسوا من الأصول النقية او المعروفة.

اما عند نشوء المسيحية وخاصة عند ظهور الحلقات المسيحية (الجنتلايتينية) فقد اضمحلت الكثير من مباديء اليهود والألكسايتينيين، الصارم كالختان وتحريم الطعام (الاجنبي)، والتقيد بيوم السبت، فقد ذوت وذهبت بسرعة بالرغم من انها بقيت لفترة في الجماعات المسيحية اليهودية. وتشير "الليدي دراور" الى ان الرسول "بولص"، هو الذي فتح بوابة يسوع للجنتليين وقد تحمل صراعا مريراً في سبيل الأنفصال عن بعض المباديء اليهودية الراسخة مثل الختان، وتحريم الطعام ، بينما لم

يكـن للنـاصورائيين المندائييـن الذيـن معظمهـم او العديـد منهـم كـانوا ربمـا مـن اجنـاس مختلفـة، وبوجـود الصوفيـة البارثيـة واليونانيـة حولهـم مـن كـل الجهـات حتـى فـي التقـاليد الموروثـة، (لـم يكـن) مـا يربطهـم بمثـل هـذه العادات حتـى لـو انهـم مارسـوها فـي وقـت مـا". وتضيـف ايضـا قائلـة:

"ان الختـان كريـه بالنسـبة للناصيروثـا لأن اي قطـع فـي الجسـم البشـري هـو قطـع لذلـك الـذي صنـع فـي صـورة اللـه، واي رجـل فيـه عيـب فـي اعضائـه الجنسـية يكـون غـير لائـق او مؤهـل لان يصبـح كاهنـاً"، دراور آدم كسـيا، ص، ٧.

وقـد اعتـبر المسـلمون الأسـلام ناسـخا للأديـان التـي سـبقها وأبـدى شـيئاً مـن التسـامح تجـاه الاديـان االتوحيديـة (اليهوديـة، الصابئيـة والمسـيحية) وجعلـوا دعوتهـم تبشـيرية شـملت العـالم كلـه كمـا فعـل المسـيحون قبلهـم.

وبظهـور النشـاط التبشـيري الواسـع مـن قبـل الديـانتين المسـيحية والأسـلامية فـي منـاطق تواجـد الصابئـة المندائييـن (الشـرق الادنـى) اوصـد بـاب التبشـير كمـا راينـا سـابقا وقـد واجهـوا نزيفـاً متواصـلا بيـن اتبـاعهم بسـبب الضغـوط السياسـية والدينيـة والاقتصاديـة اضافـة الـى ظهـور التيـارات الفكريـة المختلفـة وأدى ذلـك الـى ابتعـادهم عـن سـاحة التبشـير المحتدمـة الصـراع الـى وقتنـا هـذا. ومـع ذلـك كلـه فاننـا نعتقـد ان الديـن المندائـي هـو فـي الاصـل يقبـل المؤمنيـن بـه ضمـن ضوابـط صارمـة، ونحـن نتفـق مـع البـاحث عزيـز سـباهي فـي ملاحظتـه التـي اشـار فيهـا ان انتشـار الصابئـة المندائييـن الواسـع فـي منـاطق عديـدة (مـن العـالم القديـم) يدلـل علـى انهـم ليسـوا جماعـة صغـيرة منغلقـة علـى نفسـها كمـا غـدت مـن بعـد انمـا يبـدو انهـم مـروا بمرحلـة كـانوا فيهـا منفتحيـن علـى الآخريـن ولا يرفضـون مـن ينتمـي اليهـم اذا رضـي ان يعتنـق دينهـم ويتقيـد بطقوسـهم علـى نحومـا فعـل فتـق (فـاتك) ابـو مـاني /مثـلاً. اصـول الصابئـة المندائييـن ص ٢٢١-٢٢٢.

اما في الوقت الحاضر وخصوصا في النصف الثاني من هذا القرن فقد واجه الصابئة المندائيون الانفتاح على العالم فسكن الكثيرون منهم مراكز المدن ودخل معظم ابنائهم في المدارس واختلطوا بشعوب دول كثيرة اخرى مما اضطر البعض من شبابهم بسبب ظروف مختلفة كثيرة من الزواج بأجنبيات وكونوا عوائل جديدة واليوم ينتظرون بيأس هم وابنائهم قبولهم بين المندائيين.

ان عدد الصابئة القليل والمحدود في الوقت الحاضر والخوف من ذوبانهم في المجتمعات الكبيرة لدول العالم المختلفة والتي بدأوا يتوافدون عليها في السنين الأخيرة يحتم على المندائيين الالتفات الى هذا الجانب والحد من ظاهرة الزواج من خارج الطائفة لانه يشكل اليوم خطراً حقيقياً بأنهائها خاصة اذا عرفنا ان الكثير من الذكور قد قتلوا في الحروب وقسم آخر هاجر واصبح الفارق بين عدد النساء الى الرجال كبيرا ولن يمكن الحد من نزيف الطائفة المستمر الا من خلال اتخاذ الوسائل الناجعة للحفاظ عليها من الذوبان ولن يكون ذلك الا بتحصين المندائيين بالمعرفة والايمان وجهادهم في الحفاظ على ابنائهم من الضياع والتأكيد على جانب الاصالة المندائية التي طالما دافع عنها اباؤنا واجدادنا طيلة القرون العتيدة الماضية.

المصادر:

- قاموس الكتاب المقدس.
- ابراهيم انيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط ٢، ١٩٧٢.
- عزيز سباهي، اصول الصابئة المندائيين، دمشق ١٩٩٦.
- دراور، آدم كسيا (آدم الخفي)، اوكسفورد، ١٩٦٠.
- ناجية مراني، مفاهيم صابئية مندائية، بغداد، ١٩٨١.
- دراور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، بغداد، ١٩٦٩.

- دراور،حران كويثا ومصبتا هيبل زيوا، ١٩٥٣.
- بن النديم، الفهرست، بيروت، ١٩٧٨.
- الشهرستاني، الملل والنحل، علق عليه شيخ احمد فهمي محمد، بيروت، ١٩٤٩.
- دراشا اد يهيا.
- كنزا ربا
- E. S. Drower, The Canonical Prayer Book of the Mandaeans, Brill, 1959.